السحر الحديث

حدث منذ عهد غير بعيد ان طبيباً انكليزياً يناهز الاربعين اقترن بفتاة لا يكاد عمرها يبلغ نصف عمره وخرجا للتنزه على عادة الاوربيين بعد اقترانهم فاقاما في فندق شهراً من الزمان وهو ما يسمونهُ بشهر العسل حتى اذا انقضى جلسا في شرفة غرفتهما في اليوم الاخير يتزهان الطرف بمحاسن الطبيعة وقد كادت الشمس تتوارى في الحجاب فصبغت الافق لوناً احمر قانئاً انعكس على الآكام فامتزج بلون غياضها الخضراء وكاد يحيلهُ الى السواد. جلسا صامتين حاسبين انهما في غبطة لا انقضاء لها غبطة الخلو من الهموم لا اسف فيها على فائت ولا قلق لآت

نظر الطبيب الى زوجته وهي جالسة امامهُ والآكام وراءها كانها رُسمت عليها رسماً. رأس جامع في تقاطيعهِ لمعاني الجمال وعنق كعنق الغزال الاغيد تحتهُ قامة هيفاء لعب باعطافها الصبا. فقال في نفسهِ ترى هل تحبني كما احبها. وكأن هاتفاً هتف بهِ قائلاً « ليس الصبابة بالمشيب تليقُ » فاضطرب لحظة ثم سكن روعهُ لانهُ لم يتوسم في وجهها سوى الحب الصادق احبتهُ لذاتهِ غير منترة بشهرتهِ ولا باتساع ثروتهِ لانها كانت تجهلها كليها. فرأى فيها غاية ما يتمناهُ الزوج في الزوجة. وكان قد احبها حباً جماً عند النظرة الاولى كما يقع عادة اذا اكتهل الرجل ولذلك شعر بغبطة لا مزيد عليها. ولو كان من اهل الاوهام لخاف عين الحسود

وفيما هو يفكر في ذلك سمعها تتنهد فقال لها ما الخبر يا عزيزة فالتفتت اليهِ لفتة الغزال الشارد وتبسمت وقالت لا شيء وانما خطر على بالي خاطر قديم لا يسرُّ تذكرهُ ولا ادري لماذا خطر ببالي الآن

فقال لعلهُ خطر بائتلاف الافكار فقد ترى منظراً او تشمّ رائحة فتتذكر امراً لهُ علاقة بهما

فقالت لا هذا ولا ذاك ولكن خطر ببالي شاب عرفتهُ ثم غاب عني

ولما لحظ انها لا تود الافاضة في هذا الموضوع صمت عنهُ واسلك بيدها وجعل يربتها وقال عسى ان لا يخيب ظنك بي بل اني واثق انهُ لا يخيب ابداً

فامسكت بيده وابتسمت وقلت وانا واثقة مثلك . وكان في خنصره خاتم غريب الشكل فقلت ما اغرب هذا الخاتم لا بدّ من قصة له

فنزعهُ من اصبعه واعطاها اياهُ وقال نعم لهُ قصص كثيرة وانا استعملهُ في تنويم المرضى بالاستهواء وقد اكتشفتُ بهِ كثيراً من اسرار النفوس وخفاياها

فقالت أتستعمله في الاستهواء

فقال اني استعملهُ لكي يتجه اليهِ انتباه المرضى وكل شيء يصلح لذلك اذا وجهوا انتباههم اليهِ . ولكن رؤية هذا الخاتم اشد تأثيراً في النفس لغرابتهِ . وقلّ من يحدق بنظرهِ اليهِ بضع دقائق ولا يتولاهُ النعاس والاستهواء

فقالت كيف ذلك

فقال لا اعلم ولا احد يعلم كيف يُستهوى الانسان وغاية ما نعلمهُ انهُ اذا احدق الانسان بنظرهِ الى شيء لامع بضع دقائق نام عقلهُ الظاهر وانتبه عقلهُ الباطن . وقد وجدت هذا الخاتم صالحاً وهو في يدي دائماً فاستخدمهُ لهذا الغرض كلما اردت

فقالت وما هو العقل الباطن

فقال هو القوة العصبية التي تنظم حركات اعضائنا الباطنة كالمعدة والقلب والرئتين والكليتين وتشمل ما هو اعظم من ذلك لانها متسلطة على عواطفنا واميالنا واخلاقنا فاذا انحرفت هذه الاميال والاخلاق فالاستهواء يصلحها لاننا ننبه بهِ العقل الباطن وندربهُ على اصلاح ما اختلّ منها فبهِ نشفي السكارى من داء الكر والكذابين من داء الكذب وهلمّ جرًّا

ففتحت عينيها وقالت واذا اعتاد انسان استعمال المورفين او الكوكايين فهل يشفى من هذه العادة

فقال لقد شفيت مئات كانوا معتادين المورفين او الكوكايين فصاروا يكرهون ما كانوا مغرمين بهِ

فقالت ما اغرب ذلك وهل الشفاء دائم

فقال نعم ولا يحتمل ان يعود المصاب الى استعمال ما نهيتهُ عن استعمالهِ الاّ اذا امرتهُ بالعودة اليهِ . ولا يحتمل ان آمرهُ بذلك

فقالت يا حبذا لو عرفت هذا قبل الآن

فقال لماذا يا عزيزتي

فقالت هذا شيء قديم مضى كنت اعرف شاباً يلي بهذه العادة ثم غاب عني وانقطع خبرهُ

قالت ذلك وتنهدت . فقال مَن هو يا ترى

فقالت ما لنا ولهُ لقد مضى في سبيلهِ وكنت قد نسيتهُ ولكن كلامك الآن اذكرني بهِ

فقال اني متأسف لانني ذكرتك بشيء يؤلمك تذكارهُ

قال ذلك وقد انشغل بالهُ لكنهُ طرد الغيرة من ذهنهِ بقوة عزيمتهِ وكبر نفسهِ لانهُ لم يكن يرتاب في محبتها لهُ

فتنفرست في وجههِ وقالت اتحسب انهُ ينبغي ان اخبرك بقصة هذا الشاب

فتبسم وقال كلاَّ يا عزيزتي الاَّ اذا كان ذلك يريح بالك . اما انا فقد اخذتك كما انتِ ونحن لنا الحاضر والمستقبل اما الماضي فلا يهمنا امرهُ

فأُعجبت بما رأتهُ من كرم اخلاقهِ وقالت نعم لا يهمني الآن غيرك وانني معجبة بكبر نفسك وسمو اخلاقك ولا وجه للمقابلة بينك وبينهُ . لكنني صرت اخاف من هذا الخاتم واحب ان تستعملهُ امامي وتريني فعلهُ ولاسيما في كشف الضمائر كما قلت واشعر كأن فيهِ شيئاً من السحر

فقال نعم وبعض المرضى يسمونهُ بالخاتم السحري وبعضهم اذا استعملتهُ في تنويمهم بضع مرات يصيرون ينامون حالما ينظرون اليهِ كانهُ يسحرهم

فقالت ما اغرب ذلك وهل تأثيرهُ دائم فيهم

فقال نعم يبقى دائماً مستمرًّا ولاسيما في شديدي التأثر

فقالت اذاً هذا هو السحر الحديث وما اعظم القوة التي تلتها بهِ

فنفض كتفيهِ وقال اظن ان الاستهواء هو السحر الحقيقي من قديم وحديث وهو اصل كل ما روي من اخبار السحر والسحرة

فنظرت اليهِ وقالت ان مَن كان في يدهِ هذه القوة فهو قادر ان يضر بها كما هو قادر ان ينفع . اني واثقة انك لا تستعملها الاَّ للنفع ولكن من يكفل ان الجميع يستعملونها كذلك

فقال انني لم استعملها حتى الآن الا في النفع ولكن قد يكون السبب انني لم استعملها في الضرر لانني لم أجرّب فلا يحق لي ان افتخر

فقالت اللهمّ عفوك . والتفتت الى التلال وكان لون الشفق قد امتزج بلونها فالبسها ثوباً سندسيًّا . وبعد ان صمتت هنيهة ويدها في يده قالت هلمّ انظر هل جاء البريد فانني اشعر كأنّ لنا فيه كتاباً او شيئاً آخر هدية من هدايا العرس

فقال لا اظن اتانا شيء ومع ذلك سأذهب واري

ثم قام ونزل الى الدور الاسفل فرأى شيالاً يحمل امتعة شخص آتٍ الى الفندق . وفتش فلم يجد كتاباً ولا شيئاً آخر ودار ليصعد واذا امامهُ شاب طويل القامة يكلم الشيال فعرفهُ حالاً لانهُ كان من الاطباء الذين يهتمون بمرضاهم ولا تبرح صورتهم من ذهنهم وهذا الشاب كان من المرضى الذين عالجهم سنتين فتذكر كل ما يعرفهُ من امره وسلّم عليهِ وسألهُ عن صحتهِ . فقال على احسن ما يكون يا دكتور والفضل لك ولا انسى فضلك ابداً

فقال لهُ الحمد لله ولا خوف من النكس على ما يظهر

ثم التفت الشاب الى يد الدكتور وقال اري الخاتم السحري لا يزال في يدك ولا اريد ان تعالجني بهِ مرةً اخرى فحسبي ما رأيت منهُ

فقال الدكتور وانا واثق انك شفيت تماماً فلا تحتاج اليهِ ولكن اين تلك السيدة

فقال مضت يا دكتور وهذا من جملة الاعيب الحياة . قال ذلك بلهجة المتحسر

فخطر على بال الطبيب حينئذٍ كيف رآهُ اول مرة جاء لعيادتهِ وهو في حالة يرثى لها ولكنهُ كان شديد الرغبة في الشفاء من العادة التي علكتهُ عادة اخذ الكوكايين فانها كانت قد انحفت جسمهُ واضعفت عقلهُ وكل قواهُ . وقد اخبرهُ انهُ كان قبل ذلك كثير الدرس طامعاً في التفوق على اقرانهِ في الجامعة ثم جعل يتناول الكوكايين لتسكين اعصابهِ ورأى فتاةً امتلك قلبهُ حبها ثم لما علمت بما اعتادهُ طلبت منهُ ان يقلع عن هذهِ العادة فلم يستطع فامهلتهُ سنتين انحط في خلالها الى احط الدرجات ووقع نظرهُ عليها بعد ذلك اتفاقاً وهي لا تدري فاضطرمت نار الوجد في فؤادهِ وبادر حالاً الى هذا الطبيب لكي يعالجهُ ويشفيهُ فعالجهُ وشفاهُ .

ولم يرَ بين كل الذين عاشرهم رجلاً عقلهُ الباطن اسهل انقياداً للاستهواء . فلما تذكر الطبيب كل هذه الحوادث الآن قال لهُ لا شبهة ان السعد خانك ولكن قد تجدها اذا بحثت عنها

فقال سأفعل فانها كانت تحبني كما كنتُ احبها وهذا امر لا شبهة فيهِ فان كانت لا تزال حية فلا تزال تحبني

فقال الدكتور اني اتمنى لك ان تجدها وتسعد بها

فقال الشاب مضت سنة وانا ابحث عنها واستقصي اخبارها ولكن كل ما علمتهُ من امرها ان اهلها سافروا بها الى مكان غير معروف فلم يبقَ يا دكتور الاَّ ان تجدها انت لي كما وعدتني لما اخبرتك بقصتها

فقال الدكتور ان كل ما اتذكرهُ من هذا القبيل اني وعدت بان اشفيك واردك اليها كما كنت قبلما تعاطيت الكوكايين واني اتمنى من كل قلبي ان اجدها لك واردك اليها . ولكن تعال الآن لاعرفك بزوجتي فقد لا تسنح لك فرصة أخرى لتتعرف بها لاننا مسافران في النهد اذ قد انقضى شهر العسل

فقال لا شيء احبَّ اليَّ من ذلك وهي اسعد النساء باقترانها بك لانني لا اعرف رجلاً افضل منك وسأقول لها ذلك

فقال الطبيب تعال اذاً معي نجدها على شرفة (قرندا) غرفتنا

وسار الطبيب والشاب وراءهُ ومرَّا بغرفة الجلوس الى الشرفة ووقف الطبيب الى جانب كرسي زوجتهِ وقال لها اتيتُ بالمستر كشانا لاعرّفك بهِ

فدهشت والتفتت حالاً الى الشاب وصرخت وهي تحاول النهوض والابتعاد عنهُ . ودار زوجها والتفت الى الشاب كأنَّ خاطراً جديداً خطر على بالهِ في تلك اللحظة كشف لهُ سرًّا غامضاً . وجعل الشاب يتفرّس في الاثنين مدهوشاً ثم ناداها باسمها وهو سبيبل . وبقي الثلاثة صامتين برهةً ثم التفتت الى زوجها وقالت لهُ لقد ظلمتني

فقال عفوكِ يا عزيزتي لم اكن اعرف ذلك

فتفرست في الشاب كأنهُ طيف واقف امامها . ولما رأى زوجها ذلك قال لها اذاً الامر اهم مما نظن . فتنهدت وقالت نعم . فقال لا بأس وهذا من جملة الاعيب الحياة

اما الشاب فقال مضموكاً لم يخطر ببالي شيء مثل هذا فانا ذاهب الآن ولن اعود فقال الطبيب ولم يخطر ببالنا ايضاً ولا شبهة ان هذا من غرائب الصدف فودعها الشاب ليذهب . اما الطبيب فقال له لا لا تذهب الآن اذ لا بدَّ لنا من ان نقابل هذا المشكل مواجهة ونحله نهائياً فهلمَّ معي كلاكما الى غرفة الجلوس . قال ذلك وزوجتهُ تنظر اليه مدهوشة . ثم دخل الغرفة واثار النور الكهربائي وتبعتهُ زوجتهُ والشاب وكأن لسان الحال يقول «فلم تلكُ تصلحُ الاَّ لهُ ولم يكُ يصلح الاَّ لها» . وقف الطبيب امامهما كوالد امام ولدين شابين وقد شعر ان نسبته اليهما نسبة الوالد الاَّ ان هذا الشعور انعم فؤادهُ غماً وكاد يلجم لسانهُ عن الكلام فصارت زوجتهُ اطلق منهُ لساناً فنادتهُ وقالت لا ارى فائدة من وقوفنا هنا فدع المسترك فانا يذهب في سبيله فان هذا الموقف يصعب علينا كلنا . فقال الشاب اصبت يا دكتور فلا فائدة من بقائي هنا واني اهنئكما وادعو لكما بدوام الهناء . قال ذلك بنغمة الحزين الآسف

فقال الطبيب كلاَّ ولا يليق بنا ان نهرب من مشكلة وقعنا فيها بل لا بد حلها بالتي هي احسن فانا كنا نعرف قيمة الحياة والسعادة فاذا لم نسترح ضمائرنا الآن بقي فيها شيء يؤلمها مدى العمر . قال ذلك والتفت الى زوجتهِ والى الشاب ولما رأى انهما بقيا صامتين قال لزوجتهِ لقد كنتِ تحبين هذا الشاب يا سيبيل فنظرت اليهِ ولم تحر جواباً في اول الامر ثم استجمعت قواها وقالت مالكَ واسترجاع امر مضى وانقضى ودفناهُ انا زوجتك وانت اعز الناس عندي الآن وانا افتخر بأني زوجتك

فقال لها بصوت كلهُ لطف ودعة نعم ولكن لدينا الآن امراً آخر لا يمكن تجاهلهُ فنظرت الى الشاب وقالت لزوجها اني رفضت الاقتران بهِ وهو يعلم ذلك

فقال الطبيب انا اعلم ذلك واعلم لماذا رفضت الاقتران بهِ ولكنهُ قد تغير عما كان كما ترين

فتلجلج لسانها ونظرت الى الشاب ثم قالت نعم تغير ولكن لماذا تضمانني في هذا الموقف الحرج . نعم انا مسرورة بشفائك يا ولدي (هذا اسمهُ المرخم الذي كانت تناديهِ بهِ وهي مخطوبة لهُ) فتقدم خطوة نحوها وقال نعم شفيت يا سيبيل ولكن الفضل ليس لي بل لزوجك فهو الذي شفاني واعادني رجلاً

فنظرت الى زوجها وقالت أأنت شفيتهُ نعمًا ما فعلت. فقال زوجها لم اتمكن من شفائه لو لم اجد فيه الرغبة الشديدة في الشفاء . وقد رغب في الشفاء لانهُ رآكِ و. بنئذٍ عقد عزيمتهُ ليشفى حتى تعودي اليه

فوضعت يديها على عينيها وقالت رحماكَ لماذا تعذبانني. قالت ذلك واضطربت وكادت تقع فبادر الشاب اليها ومدّ يديه ليسندها فابتدرهُ زوجها ودفعهُ عنها وامسك بها وضمها الى صدره وقد علت وجههُ حمرة الغيظ وقال للشاب ابعد هذه زوجتي ولا شأن لك معها

فاحمرت عينا الشاب ولم يعد يستطيع امتلاك طبعه فقلب شفتيه وقال نعم زوجتك بعقد الزيجة ولكن ليس بالحب

وانقلب الاثنان حينئذٍ الى ما كان عليه اسلافهما حينما كان الذكور يتقاتلون على الاناث . فاحمرّت عينا الطبيب وجعل صدرهُ يعلو ويهبط كأنّ فيه بركانًا ثائرًا وقال للشاب اياك وان تتلفظ بهذه الكلمة مرةً اخرى

فاحمرّ وجه الشاب وثار ثائرهُ واجابهُ قائلاً قلتُ ولا ازال اقول انها لي بحق الحب وان كنتَ قد استهويتها حتى تفترن بك ففي الطبيعة قوة فوق قوة القسوس الذين يعقدون عقد الزيجة وانت لا تجهل ذلك فدعها تختر بيننا اذا كنتَ لا تجبن عن ذلك

فتمالك الطبيب طبعهُ وتنفّس الصعداء واجلس زوجتهُ على كرسي وقال لها أسمعتِ ما قال هذا الشاب . فقالت نعم . فقال اختاري بيننا . فنظرت اليه والدموع ملء عينيها وقالت لماذا تعذبني يا ليتك لم تشفه

فنظر الشاب الى الطبيب نظرة الغالب وقال حسبي أفهمتَ معناها

فقال الطبيب كلاّ والف كلاّ فان كلامها هذا لا يثبت شيئًا

فقال الشاب اما انا فقهمت واقول انهُ يكفيني

فنظرت الى زوجها وقالت الا يكفيك ذلك

فقال كان يكفيني منذ ساعة من الزمان اما الآن فلا. قال هذا وقبض راحتيه ووضعهما على جبينه وقال اللهمّ عفوك . لا بد لنا من حسم هذه المسئلة الآن

(ستأتي البقية)